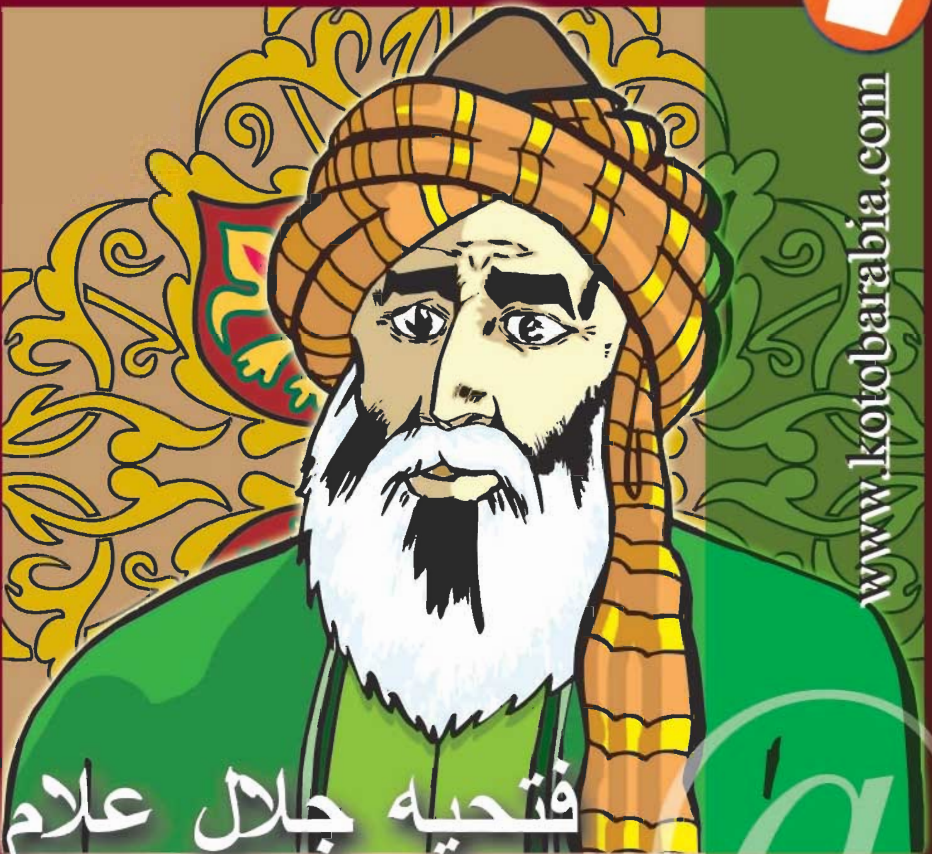
الكندي

فيلسوف العرب



فتحيه جلال علام

الكندي فيلسوف العـرب

سيـرة قصصية للطفـل العـربي

(حتى سن ١٤ سنة)

بسم الله الرحمن الرحيم

أحبائي أقص عليكم اليوم قصة:" أبـو يوسـف يعقـوب الكندي" وهو أول فيلسوف في الإسـلام ويسـمى فيلسـوف العرب، فقد ذكر عنه"ابن النديم" في كتابه الفهرست قولـه:" فاضلُ دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها ويسمى فيلسوف العرب". وأيضا ذكر عنه"القفطي" في كتابه أخبار الحكماء قوله: " أبو يوسف الكندي المشتهر في الملـة الإسلامية بالتبحر في فنون الحكمـة اليونانيـة والفارسـية والهندية متخصص بأحكام النجوم وأحكـام سـائر العلـوم فيلسوف العرب وأحد أبناء ملوكها".

إذن معنا اليوم عقلية متبحرة في كافة العلوم في عصره. وأحب أن أعرفكم به أولاً إنه" أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس" وهذا هو نسبه في الإسلام ويمتد نسبه في الجاهلية حتى يعرب بن قحطان والذي كان أبناؤه ملوكاً على اليمن.

دعونا نبدأ الحكاية من أولها: ولد يعقـوب الكنـدي فـي الكوفة وكان والده إسحاق بن الصباح واليا عليهـا. وعلـى

الرغم من أننا لا نعرف على وجه الدقة السنة التي ولد بهـا الكندي إلا أن الكثيرين يرجحون ميلاده في أوائـل القـرن التاسع الميلادي أواخر القرن الثاني للهجرة ويحدد الأسـتاذ/ مصطفى عبد الرازق في كتابه"فيلسوف العرب" أنه ولد سنة ٨٠١م-١٨٥ هـ وكان ميلاده في أواخر حياة أبيه إسـحاق بن الصباح ولما توفى والده خرجت والدة يعقوب بأسرتها من دار الإمارة بالكوفة وعادت إلى دارها بالكوفة حيـث نشـأ يعقوب بن إسحاق بن الصباح صبياً.

ومما لاشك فيه أن الكندي أدرك حسبه ونسبه وكيف كان أجداده ملوكاً على اليمن وأبوه والياً على الكوفة، حقـاً إنـه سليلُ الملك.

المحطة الثانية أحبائي هي انتقاله من الكوفة إلى بغـداد، حيث عاش هناك في دار من أفخم الدور تليق بمكانة الكندي وتاريخ آبائه وأجداده. وفى بغداد تلقى الكندي في صباه كـل العلوم التي كان يتلقاها الصبيةُ فـي عصـره مـن القـراءة والكتابة والنحو وحفظ القرآن الكريم والأحاديث والفقه وحفظ الشعر أيضا والبلاغة، ولكن هذا الصبي النابغة لم يجد نفسه حقا سوى في الفلسفة وعلومها، فبدأ فـي دراسـتها بجميـع

فروعها المعروفة عند العرب والتي ورثوها عن اليونان وفلاسفتها العظام أفلاطون وأرسطو حيث تُرجمت معظم أعمالهم إلى اللغة العربية.

وكان يعقوب الصبي يجيد اللغة اليونانية والسريانية بل والهندية أيضاً، فبدأ في ترجمة الأعمال اليونانية والسريانية والهندية وظهرت موهبةُ الكندي في اختصار هذه الكتب وتفسير الغامض منها بل إنه ترجم المصطلحات الفلسفية ترجمةً خاصةً به وبسطها للناس، وكان العصر الذي عاش فيه الكندي يسمى عصر الترجمة فنبغ الكندي في الترجمة حتى أنهم يعتبرونه واحداً من أربعة هم حذاقُ الترجمة في الإسلام وهم حنين ابن إسحاق و يعقوب بن إسحاق الكندي و ثابت بن قرة الحراني و عمر بن الفرخان الطبري.

وكانت معظم الترجمات عن اليونانية والسريانية، والقليل منها عن الفارسية والهندية، أما يعقوب الكندي فقد ابتكر أسلوبا جديدا في الترجمة هو أسلوب التلخيص، حيث يعتمد على أصل أجنبي ولكنه يقتبس منه ويلخّص أفكاره ويصوغها صياغة جديدة متناسبة مع العرب وأساليبهم.وتعمق الكندي في الفلسفة، وقد ذكر عنه ابن نباته المصري في شرحه

لرسالة ابن زيدون:" الكندي هو يعقوب بن الصباح المسـمى في وقته فيلسوف الإسلام من ولد الأشعث بن قيس كان أبوه بن الصباح من ولاة الأعمال في الكوفة و غيرها فـي أيـام المهدي و الرشيد. و انتقل يعقوب إلى بغداد و اشتغل بعلـم الأدب ثم بعلوم الفلسفة جميعها فأتقنها و حلّ مشكلات كتـب الأوائل و حذا حذو ارسطاطاليس وصـنف الكتـب الجليلـة الجمة و كثرت فوائده و تلامذته و كانـت دولـة المعتصـم تتجمل به و بمصنفاته و هي كثيرة جدا".

وعند الكلام عن النفس نجد أن الكندي قـد حـار عنـد ترجمته للمذهبين اليونانيين أيأخذ بالمـذهب الأفلاطـوني أم بالمذهب الأرسطاطاليسي، فقد قسم أفلاطون الـنفس قسـمة ثلاثية هي الشهوانية و الغضبية و العاقلـة و يـذهب إلـى انفصالها عن البدن و خلودها بعد فنائه. أما أرسطو فقد نظر للكائن الحي من حيث هو كذلك و خص الإنسـان بـالنفس العاقلة. و قد ترجم الكندي تاسوعات أفلوطين و سمى الكتاب باسم الربوبية و قد ألّف الكندي رسالة بعنوان" القـول فـي النفس المختصر من كتاب أرسـطو و أفلاطـون و سـائر الفلاسفة" و جمع الكندي بين المذهبين فقال" إن النفس بسيطة

ذاتُ شرف و كمال عظيمة الشأن جوهرها من جوهر الباري عز و جل كقياس ضياء الشمس من الشمس". و يقرر الكندي أن النفس الإنسانية يقظة لا تنام أبدا و يقرر أيضا أن الـنفس خالدة لا تفنى بفناء البدن. و قد وضع الكندي فـي رسـالة بعنوان" الحدود و الرسوم" ستة تعريفات للفلسفة وهي:

١_ من جهة اشتقاق اسمها: حب الحكمة.

٢_ من جهة فعلها: التشبه بأفعال الله تعالى - بقـدر طاقـة الإنسان - إذْ أراد أن يكون الإنسان كامل الفضيلة.

٣ _ من جهة فعلها أيضا: العناية بـالموت بمعنـى إماتـة الشهوات لأن إماتة الشهوات هي السبيلُ إلى الفضيلة.

٤ _ من جهة العلة: صناعة الصناعات و حكمة الحكم.

٥ _ من جهة النفس: الفلسفة معرفة الإنسان بنفسه.

٦ _ من جهة حقيقتها في ذاتها: الفلسفة علم الأشياء الأبديـة الكلية.

والحق الأول عند الكندي أبنائي هو الباري سبحانه ويرى أن الفلسفة و الدين متفقان موضوعا و منهجا و في ذلك يقول الكندي" لأن في علم الأشياء بحقائقها علم الربوبيـة و علـم الوحدانية و علم الفضيلة و جملة علم كلّ نافع و السبيل إليه،

و البعد عن كل ضار و الاحتراس منه و اقتناء هذه جميعـا هو الذي أتت به الرسل الصادقة – صلوات الله عليها_ إنمـا أتت بالإقرار بربوبية الله وحده و بلزوم الفضائل المرتضـاة عنده و ترك الرذائل المضادة للفضائل في ذاتها و إيثارهـا. فواجب إذن التمسك بهذه القنية النفسية عند ذوى الحق و أن نسعى في طلبها بغاية جهدنا".

والفلسفة أحبائي هي أن يقوم الإنسـان بدراسـة جميـع المعارف وأن يحاول أن يردها إلى محور واحد تتفرع عنـه وإلى غاية واحدة تتجه إليها سواء كان هذا المحور هو الكون أم الإنسان. وبحكم هذا التعمق عني الكندي بتصنيف العلـوم الذي سبقه إليه فلاسفة اليونان وقد كان لكل مـنهم تصـنيف مختلف عن الآخر وقد واجه الكنـدي مشـكلة كثـرة هـذه التصانيف المختلفة هل يأخذ واحدا منها فقط أو أن يوفق بين هذه التصانيف وقد اختار الكندي أن يوفّق بينها.

ويعتبر الكندي أول من وضع لمفكري الإسلام التخطـيط العام لتصنيف العلوم، وأشرح لكم أبنائي تقسيمه للعلوم، فقـد قسمها قسمين أساسيين وكل قسم تتفرع عنه علـوم أخـرى، فالقسم الأول: العلوم الفلسفية والتي تشتمل على الرياضـيات

والمنطق والطبيعيات والميتافيزيقـا والأخـلاق والسياسـة، والقسم الثاني: العلوم الدينية والتي تشتمل على أصول الدين والعقائد والتوحيد والرد على المبتدعين والمخـالفين، وهـذا التصنيف فتح الباب أمام الفلاسفة الذين تلوه مثل ابـن سـينا والفارابي وابن رشد حيث حذوا حذوه مع بعض التعديل.

هل تصدقون أولادي أن الكندي قد برع في علم الموسيقى أيضاً بل وأنه أول من وضع قواعد علم الموسيقى ففتح الباب أمام الفارابي وابن سينا اللذين قاما بتطوير هذا العلـم فيمـا بعد.

ابتكر الكندي نظاما جديدا في الموسيقى فتلقـى التـراث اليوناني وطبقه على الموسيقى العربية بما يتلاءم مع الـذوق العربي في الغناء وما يتفق مع ألحان العرب وآلاتهـم التـي يقومون بالعزف عليها، وما ساعد الكندي على النبوغ في هذا العلم هو وجوده في عهد العباسيين والـذين اهتمـوا بـالفن والثقافة والدين إلى أقصى حد. فظهر إبراهيم الموصـلي و ابن الجامع ثم إسحاق الموصلي في خلافة هـارون الرشـيد وقام إسحاق الموصلي بتأليف تسعة عشر كتاباً في الموسيقى وأسس مدرسة لتعليم الموسيقى والغناء في بغداد في هذا الجو

ظهر الكندي، وببراعته قام بالفصل العلمي في الخلافات التي دارت بين الموسيقيين الذين انقسموا قسـمين: الأول يـدعو للتمسك بالمأثور عن العرب والثاني يـدعو إلـى التحـرر والتجديد والأخذ بموسيقى الفرس والروم.

واهتم الكندي بوصف الآلات الموسيقية وكيفيـة العـزف عليها نظريا وقام بتأليف سلم موسيقى خاص به وهو الـذي نستخدمه حتى الآن، يا لهذا الرجل هل تعلمون أيضا أنه كان بارعا في الطب بل إنه أول مـن اسـتخدم الموسـيقى فـي العلاج، ذلك النظام الذي اعتبروه ثورة في طرق العلاج في القرن العشرين قام باستخدامه الكندي فـي القـرن الثالـث للهجرة، ورويت قصة تؤكد استخدامه للموسيقى في العـلاج احكيها لكم يا أولادي:

فقد كان للكندي جار من كبار التجار وكان هـذا التـاجر على خلاف مع الفيلسوف الكبير وفجأة مرض ابـن التـاجر بسكتة مفاجئة وحار الأطباء في علاجـه فنصـحه النـاس بعرضه على الكندي واضطر الأب إلى أن يبعـث للكنـدي نظراً لسوء حالة ابنه وأجاب الكندي طلب التاجر ونسي مـا بينه وبين التاجر من خلافات، إنه الواجب الذي يناديه الآن،

وذهب إلى بيت جاره التاجر ومعه بعض من تلامذته في علم الموسيقى وأمهرهم في العزف على العود، وأمرهم الكنـدي بالعزف بطريقة معينة وأوصاهم بأن لا يتوقفوا عن العـزف أبداً، والكندي يمسك بيد الغلام يرى ويلاحظ متى يمتد نفسـه ويزداد نبضه حتى أفاق الغلام وجلـس وتكلـم، ثـم نسـي العازفون وقاموا بالعزف بطريقة مختلفة، و فتروا في العزف فعاد الصبي إلى حالته الأولى، فسأله التاجر أن يكرروا مـا فعلوه ثانيةً فرد عليه الكندي بأنه لا يمكن إعادة ما جرى وأن هذا هو ما تبقّى من حياة ابنك.

يا لفيلسوفنا الكبير حقا، إن تاريخنا العربي زاخر بالعلماء والفلاسفة الذين برعوا في شتى العلوم، وقد اعتمـد علـيهم الغرب في اكتشافاتهم التي نسبوها إلى أنفسهم، ولكن الكندي متفرد بذاته وبشخصيته الفريدة المتنوعة والمتعددة المواهب.

الفَلك أبنائي من العلوم التي طورها الكندي مع مجموعـة من العلماء، و أحب هنا أن أحدثكم عن نشأة علم الفلك فـي الإسلام و دور الكندي في تطويره بعد ذلك.

بعد استقرار الدولة الأموية و دخول الفرس والروم فـي الإسلام بدءوا بنقل علوم الطـب و الكيميـاء و الأحكـام و

اشتدت حركة النقل في الدولة العباسية و في زمان المنصور استخدم العرب الإسطرلاب لقياس ارتفاع الكواكب و معرفة الطالع ثم جاء عالم فلكي هندي في عهد"أبي جعفر المنصور" الذي كلفه بتأليف كتاب في علم الهيئة و اشتُهر الكتاب باسم: (السند هند) وضح فيه طريقة الهنود في عمـل الجـداول الفلكية و ظلّ هذا الكتاب أساسا لعلماء الفلك العـرب حتـى بداية خلافة المأمون الذي انتشرت في عهـده الرياضـيات اليونانية، و انتقل العرب بالتدريج من النظام الهنـدي إلـى الحساب اليوناني. تأثر العرب في علم الفلك بمذاهب الفـرس و بطرائق الهند و لم يكد يطلع القرن الثالث الهجري حتـى ابتدع منجمو العرب علما جديدا لا هو هندي و لا فارسي و لا يوناني و لكنه يميل إلى الحساب اليوناني لسهولته و عاش الكندي في فترة التحول هذه وشارك مجموعة مـن العلمـاء العرب في تجديد علم الفلك و تطويره منهم أبو معشر البلخي و سند بن علي و بنو موسى بن شاكر.و للأسف لا يوجد بين أيدينا رسائل الكندي الفلكية لنتعرف على مدى مساهمته فـي تطوير علم الفلك، و لكن توجد ترجمة لإحدى رسائله باللغة اللاتينية و اسمها" في علل القوى المنسوبة إلـى الأشـخاص

العالية الدالة على المطر" و له أيضا رسالة بعنوان" في عمل الساعات في صفحة تنصب علـي سـطح مـوازي للأفـق بالخطوط خبر من غير برهان".

وللكندي أيضاً مؤلفات في الكيمياء والتي اختلف العلمـاء فيها فمنهم من يرى بأن الكيميـاء هـي تحويـل المعـادن الرخيصة إلى ذهب والآخرون يرون أنها صنعة يمكن بهـا تشكيل المعادن وسبكها واستخراج الزيـوت المختلفـة مـن النبات، ويعتمدون على التجارب وما تسفر عنه من نتـائج. وكان الكندي على رأس الفريق الثاني، وللأسف فقد فُقـدت معظم مؤلّفاته في الكيمياء، ولكن توجد رسالة لـه محفوظـة بدار الكتب المصرية وهى رسالة خطية بعنوان (الترفق في العطر أبواب صناعة المسك).

وكان الكندي يجمع في داره نوادر الحيوان والنبات وهذا لم يكن من باب التفاخر والزينة ولكنه كان يهـتم بملاحظـة الطبيعة من واقعها ويأخذ المعرفة من التجارب. وقد حكـى الجاحظ في كتابه الحيوان قصة تدل على غرائب الحيوان في دار الكندي، وكانت لدى الكندي مكتبة عامرة بكافـة أنـواع الكتب وكانت تسمى الكندية، وقد كان فيلسوفنا الكبير غزيـر

التأليف حيث تبلغ مؤلفاته مائتين وواحد وأربعين كتاباً ولكن للأسف الشديد لم يتبق منها إلا بضع وخمسون كتاباً، وتتنوع هذه الكتب من كتب فلسفية ومنطقية وحسابيات وموسـيقيات ونجوميات وهندسيات وفلكيات وطبيات وأحكاميات وجدليات ونفسيات وسياسـيات وإحـداثيات وأبعاديـات وتقـدميات وأنواعيات.

هل تصدقون هذا الكم الهائل والمتنوع من العلوم التي أتقنها الكندي والتي تشتمل على جميع أنواع المعرفة.

شخص كهذا أبنائي وجد منافسين له في كل مجال خاصة وقد كان هؤلاء المنافسون يحسدونه علـى تفوقـه علـيهم، فهاجموه من كل جانب وبكل سلاح وقاموا بترويج الشائعات عنه والتي تشوه قدره وتسيء إلى منزلته الفريـدة. إن كـل مشهور محسود فما بالنا بالكندي الذي لـم يتـرك علمـا إلا خاضه بل وبرع فيه أيضاً، متبحرا في الفلسـفة وعلومهـا، غائصا في علوم العرب من الأدب والنحو والشعر مقربا من الحكام في عصره، فقد كان مقربا للخلفاء المأمون والمعتصم وهذا ما جعل علماء عصره يكيدون له المكائد ويدسون لـه عند الخلفاء حتى استطاعوا إبعاده في عهد الخليفة المتوكل.

ومما أشاعوا عنه بخله الشديد حيث ارتبط اسـم الكنـدي بالبخل والحرص الشديد مما جعل الجاحظ يرسم له صـورة كاريكاتورية في كتابه البخلاء فصار مضرب الأمثـال فـي البخل. و لا يوجد دخان بغير نار يا أولادي، فقد كان الكندي على جانب من البخل، ولكنه لم يبلغ من الشح والتقتيـر مـا حكوا عنه. وأيضا فإن الجاحظ لم يذكره في كتابـه الـبخلاء لبخله الشديد بل لقدرته على الاحتجاج وسوق الأدلة القويـة للاحتفاظ بالمال. ومن الأسباب التـي أدت إلـى أن يبـالغ

الجاحظ في وصف شح الكندي اختلافُ نوع الحياة التي كان يحياها كلّ من الكندي و الجاحظ. الكندي الفيلسوف يعيش في عزلة و انقطاع عن مجالس العلمـاء و الأدبـاء و اتصـاله بالمترجمين و الفلاسفة و هم من غير المسلمين و العـرب، أما الجاحظ الضاحك الساخر فقد كان يعيش حياة الأدباء من غير نظام و لا حدود و لا اقتصاد عكس الكندي الذي يأخـذ بأسباب الاقتصاد و النظام و سياسة النفس و مجاهدة شهواتها و من حكمه المأثورة" اعص الهوى و أطع مـا شـئت"." لا تنجو مما تكرهه حتى تمتنع عن كثير مما تحب و تريد"." إن النظر في كتب الحكمة اعتياد النفوس الناطقة". و قد روى له الشهرزوري" من ملك نفسه ملك المملكة العظمى و اسـتغنى عن المؤن ومن كان كذلك ارتفع عنه الذم و حمده كل واحد و طاب عيشه"." و لو أفسد أحد أحسن أعضائه كان مـذموما و أشرف الأعضاء الدماغ و منه الحس و الحركة و سـائر الأفعال الشريفة. و مستعملو السكْر يـدخلون الفسـاد علـى أدمغتهم و متى توالى السكر على بدنٍ مرض دماغه و اشتد ضعفه و بعد عن القوة الممدة للأفعال الإرادية و النفسانية".

ومن نوادره وكلامه في البخل أنه قال" إنك تقول للسـائل لا ورأسك إلى فوق ومن ذلك العطاء أنك تقول نعـم وأنـت رأسك إلى أسفل" وكان يقول أيضا" سماع الغناء برسام حاد فإن الإنسان يسمع فيطرب فينفـق فيسـرف فيفتقـر فيغـتم فيموت".

ومن وصيته لولده" يا بني كن مع الناس كلاعب الشطرنج تحفظ شيئك وتأخذ من شيئهم. فإن مالك إذا خرج عن يدك لم يعد إليك. واعلم أن الدينار محموم فإذا صرفته مات وأعلـم أنه ليس شيء أسرع فناء من الدينار إذا كُسر والقرطاس إذا نُشر ومثَلُ الدرهم كمثل الطير الذي هو لك ما دام في يـدك فإذا ند عنك صار لغيرك".

وقد ذكر الجاحظ من أقوال الكندي" إنما المال لمن حفظه وإنما الغنى لمن تمسك به ولحفظ المال بنيت الحيطان وغُلِّقت الأبواب و اتخذت الصناديق وعملت الأقفال ونُقشت الرسـوم والخواتيم وتعلم الحساب والكُتاب".

ويرى البعض أن الجاحظ قد ألف كتابه هـذا بعـد وفـاة الكندي فلم يكن يستطيع أن يرد عليه أو ينكر ما فيه ويـرى البعض أن الكندي الذي يحكى عنه الجاحظ كندي آخر غيـر

أبي يوسف يعقوب الكندي فيلسوف العرب والإسلام ومهمـا يكن فقد أُلصقت هذه الصفة بفيلسوفنا الكبير.

وبعد أن استطاع بنو موسى (محمد وأحمـد والحسـن) وهم من أشد منافسي الكندي إبعاده عـن بـلاط السـلطان المتوكل، لزم الكندي داره وابتعـد عـن الحيـاة السياسـية وتقلباتها حتى توفاه الله وكما أن سنة مولده غير معروفة على وجه الدقة فإن سنة وفاته غير معروفة أيضاً على وجه الدقة فمنهم من ذكر أنه توفى في عام ٢٤٦هـ – ٨٦٠ م أو عام ٢٦٠ هـ ـ ٨٧٣ م ويرجح الأستاذ مصطفى عبد الـرازق وفاته في أواخر عام ٢٥٢هـ ـ ٨٦٤ م.

أحبائي كانت هذه قصةُ فيلسوف العرب: أبو يوسف يعقوب الكندي الذي سجل الحضارة الإسلامية في زمانه وخطّط لما سوف تسير عليه في المستقبل، نفعنا الله من قصتـــه.